

علمني

عشت طويلاً مع اسرتي أحيا حياة الآخرين من البشر بكل تفاصيلها فتفاعلت معها وشاركت أحياناً في رسم تفاصيلها حتي صارت جزءاً هاماً مني لا أُرغب في الانفصال عنه. لكن خشيت الانصهار في حياة الآخرين حتي النخاع، فتنمحي شخصيتي وأصبح كائناً بلا خصائص مميزة، لذلك تعمدت أن يكون في حياتي الركن الخاص بي. صحيح إنني اشارك عائلتي في كل شيء وأتفاعل مع مشاكل الكبير والصغير، وصحيح إنني أحب هذه المشاركة وهذا الاندماج والتفاعل، بل إنني أعتبر أن هذا الترابط مع اسرتي نعمة من الله علي بها، إلا إنني أتعمد أن أخلق لنفسني عالمي الخاص .

ألجأ إلى هذا العالم مرات ومرات لأصنع شيئاً خاصاً بي أنا، وحدي فأقرأ رواية أو ديوان شعر أو أقوم بترجمة احدى المسرحيات وأحاول أن أنشرها، أو أكتب مقالاً لإحدى المجلات. وعندما تُنشر بعض ترجماتي أو مقالاتي أسعد بها وكأنها طفلي الذي أنجبته. وأول من يشاركني فرحتي بهذا أسرتي. أسعد بفرحتهم بي وفخرهم أحياناً. وهكذا اعتدت أن أنشئ عادات خاصة بي فأجلس علي مقعد معين لتناول الطعام وأشرب الشاي في موعد محدد بل وأرتدى اكسسواراتي بطريقة معينة. ونظراً لعملي في مدينة غير التي أقيم فيها ، فإنني أقضي ثلاث ساعات يومياً بالقطار لكي أصل إلى مكان عملي، لذلك اعتدت أن أقضي هذا الوقت في القطار بين قراءة الجرائد والترجمة. واعتاد أصدقاء القطار ألا يحاولوا الحديث معي طوال الوقت فهم يعلمون إنني معتادة أن أتحدث معهم قليلاً، ثم أكمل عملي.

التعود علي شيء يريح الفرد ولا يجعله يفكر فيما حوله، فيكون الفرد كأنه قطار يسير علي قضيبين في مسار محدد سلفاً. وحسب المنطق إذا كنت أسير في طريق محدد سلفاً فلا حاجة بي إذاً إلى التفكير في هذا الطريق ولا الى التفكير في تغييره لأنني لن أتمكن أو لأنني حتي إن تمكنت من تغيير الطريق فهناك نسبة عالية من المخاطرة بأن ينقلب القطار. هذه هي خطورة الاعتياد علي فعل شيء، أنك تخاف من تغييره لأن في التغيير مخاطرة كُبرى، مخاطرة غير محسوبة العواقب. ينطبق هذا حتي على العادات البسيطة مثل شرب الشاي في موعد محدد مثلاً، فأنت تخشى اذا لم تتناوله في موعده أن تصاب بالصداع أو يتعكر مزاجك بشكل ما. وأنا اعتدت ألا أسمح لأحد بالإقتراب من ركني الخاص هذا لاصديق ولا حبيب. كنت أخشى من دخول حبيب في حياتي لأنني ببساطة أخشى المخاطرة، فالحبيب مجهول، وأنا أخشى المجهول لأنني لا أعرفه. نجحت في هذا سنوات عدة حتى اقتحمني، نعم اقتحم عالمي الخاص بكل جرأة وأصر علي الظهور فيه من آن لآخر وقلب نظامه. وبالعقل أقنعني أن القطار يمكن أن يترك قضيبه لينتقل علي قضيبين آخرين، يطلقون على ذلك التحويلة، فبدلاً من ان يسافر الي الاسكندرية يستطيع عن طريق التحويلة أن يذهب إلي المنصورة مثلاً. فالتغيير إذا ليس بالضرورة سيئاً. استمعت إليه طويلاً فعلمني.

علمني أنني أنا التي اعتدت على تحاشي الحب خوفاً منه، يمكنني أن أحب، علمني أن خلف ضلوعي قلب ينبض، لا ليضخ دمائي لباقي جسدي فيحيه فقط، بل ليحب فيمنح هذا الجسد الرونق والبهجة والمرح. حين تحب المرأة تمرح كل اعضائها، فتصبح نظراتها متلاًلأه فيعرف الجميع أنها تحب دون أن تنطق ، ويصبح شعرها لامعاً وتفوح منه روائح الورد والفل والياسمين. حين تخطو المحبة يتراقص جسدها دونما رقص حقيقي وحين تتحدث تصدر انغاماً تطرب آذان السامعين. سيدتي هل رأيت نفسك حين تحبين؟ انظري في المرآة ستعرفين أن الحب جعلك أجمل وأرق من ذي قبل، واستمعي إلي كلماتك ستجدين أن ألفاظك أجمل

من ذي قبل فالحب محسن لغوي لامثيل له. راقبي تعاملك مع الآخرين ستجدين أنك أحسن من ذي قبل بكثير وحنانك يفيض علي القريب والغريب. علمني حبيبي المقتحم أهم شيء ... علمني أن أحب ... علمني أنني أستطيع أن أحب.

بجواره كنت احس أنني ابنة السادسة عشر لا السادسة والثلاثين. في إحدى المرات جلست بجواره أستمع اليه بلهفة وانهل من علمه فقد اعتدت أن يعلمني، ومددت يدي بصورة اتوماتيكية فخلعت الخاتم الذي في إصبعي فغيرت اتجاهه ولبسته مرة أخرى، كان خاتماً من الذهب علي شكل قلب كبير، فسألني " لماذا فعلت هذا ؟ " فقلت له " أحب هذا الخاتم كثيراً وقد اعتدت ارتدائه بحيث يكون الجزء العريض من الخاتم في اتجاه يدي والجزء المدبب يشير إلى الخارج. واليوم لأنني كنت متعجلة للقاءك ارتديته عكس ما اعتدت وهذا يزعجني لا ادري لماذا. " فقال حبيبي " التعود علي شيء مجرد وهم. الشخص الذكي لا يجب أن يكون أسير عاداته. فالأسر عكس الحرية. والحرية هي أثمن شيء في الوجود. والخوف من تغيير المرء لعاداته مجرد وهم يخلقه لنفسه " حكيم هو... ... ومقتنع .

علمني حبيبي في هذا اليوم أن أتخلي عن عاداتي وقد كان إحداها.